

## بين مكسيم جوركي ولينين

من علامات العصر الحاضر وخصائص تفكيره اتجاه الكتاب الخالقين ومثلى الثقافة الحديثة إلى معالجة الشؤون الاجتماعية ، والخوض في المشكلات العملية ، والانحياز إلى أحد معسكرات المذاهب السياسية المتطاحنة . وفي الماضي القريب كانت مسألة تقسيم الكتاب والمفكرين تبعاً لرأيهم في نظام الحكم والمبدأ السياسي الذي يؤثرونه ويناضلون عنه تكاد تكون وهما من الأهم ومذهباً خاطئاً من مذاهب النقد والتحليل ، والأمة الوحيدة التي كانت تخرج على هذه القاعدة وتشذ عن تلك السنة هي الأمة الروسية . فقد كان المؤلف عند الروسيين أن يعبر الشعراء والكتاب والنقاد عن ميولهم السياسية ونزعاتهم الحزبية ، ومنذ أوائل القرن التاسع عشر لم يستطع أكثر كتاب روسيا الفرار من مواجهة مشكلاتها الاجتماعية وأزماتها السياسية . وقد كان اسكندر بوشكين كبير شعراء الروس ضالعا في ثورة ديسمبر سنة ١٨٢٥ ، وأعدم الشاعر رايليف لأنه كان من جناتها وقد آزر الثائرين رجال الأدب وزهرة المفكرين . وكتاب « مذكرات

صياد « الذى وضعه الكاتب الروائى العظيم إيفان ترجنيف كان يعد من الحوادث الاجتماعية الهامة التى أثارَت الضمائر وهزت النفوس ، وكانت عاملاً من عوامل تحرير الفلاحين ورفع نير العبودية عن كواهلهم . وآراء طولستوى فى التقليل جهد الطاقة من سلطة الحكومة ونبذ سلطان الكنيسة ودفاعه عن الطبقات المظلومة جعله قوة هائلة فى روسيا ، مؤيدة للتعاليم الثورية . وقد مرت بالأدب الروسى فترات متقطعة كان يؤثر فيها القيم الفنية والأدب الخالص ، ويضعهما فوق سائر القيم ، ولكنه فى اتجاهه العام وحركاته الشاملة كان يقترب على الدوام من النقد الاجتماعى والنزعات السياسية . وكان يروق الشعراء والروائيين والقاصين أن يلتمسوا الموضوعات التى تنطوى على تحد للسلطة ومناوأة لتقاليد المجتمع وتقد للأحوال العامة .

وليس فى مستطاعنا أن نقدر مدى تعمق هذه الاتجاهات الأدبية عند الروسين إذا أغفلنا الإشارة إلى حقائق حياتهم وحوادث تاريخهم ، ولروسيا ظروفها الخاصة وملابساتها الاجتماعية ، ونظمها السياسية والدينية التى تسوغ هذا الاتجاه ، وتبين ضرورته ، وخضوعه لمنطق الحوادث .

فقد كان نظام روسيا الاجتماعى فى القرن التاسع عشر فريداً عجيباً بين النظم الأوربية لأنه كان قائماً على بقاء العبودية ، ولما ألغيت العبودية وعظمت أحكامها ظل هذا النظام الاجتماعى مرتكزاً على الاحتفاظ بالحكم الأوتقراطى المطلق ، ومن ثم كانت الحياة الأدبية والنزعات الفكرية تورة على هذا الجمود ومقاومة لهذا الطغيان الذى كاد يمحو الحياة ويشل القوى . وكان

لزاماً على الكتاب والمفكرين والمصلحين أن يتعاونوا على مكافحة الخرافات والجهل والاضطهاد والقسوة ، وأن يعملوا على تأكيد القيم الإنسانية والمثل الأخلاقية في مثل ذلك الجو الخانق والسجن المطبق الذي شيدته يد الاستبداد . وقد كان بعض القياصرة يبدأ بداية حسنة مبشرة، ويعد المستنيرين بالإصلاح والحرية ، ولكن سرعان ما كان يخلف الظن ويخيب الأمل . وقد تلمذت القيصرة كاترين الثانية لفولتير والإنسيكاو بيديين . ولكن هذه التلميذة النجيبة المجدة كانت تخذ الثورات بقسوة وعنف ولم تكن في إهمال حقوق الشعب وإهدار كرامته أحسن حالا من غيرها ، وكذلك كان حفيدها الإسكندر الأول ، فقد تلمذ للاهارب ، وتحمس في أوائل حكمه للإصلاح ، وأفضى به الأمر في النهاية إلى ترك زمام الأمور في يد الرجعي الرهيب أركشاييف . وقد ظلت الرقابة على الصحف والمجلات والمعاهد والجامعات وبرامج التعليم قائمة في روسيا طوال القرن التاسع عشر . وكان نظام الجاسوسية من الدقة والإتقان بحيث لا تخفى عليه خافية ولا تفوته حركة .

وكانت النتيجة المحتومة لهذا الضغط البالغ والحجر الشديد أن يضطلع الكتاب الخالقون والشعراء الفنانون بنقد الأحوال الحاضرة ، وتناول الشؤون الاجتماعية ، وتصوير النزعات الراهنة ، وحقائق الحياة الواقعة . ومن أشهر كتاب روسيا في هذا المجال وأسبقهم في هذا الميدان الكاتب الكبير مكسيم جوركي الذي ولد سنة ١٨٦٨ وتوفي سنة ١٩٣٦ . وقد

كان في سنواته الأخيرة في طبيعة الشخصيات البارزة المحترمة في روسيا الشيوعية ، بل كان يعد في نظر قومه بطلا من أبطال الجهاد يحفه الإجلال والتعظيم . وقد غير البلاشفة اسم مدينة نجني نوجورد التي ولد فيها جوركي ، وكانت مسرح ذكرياته وقصصه ، وسموها « مدينة جوركي » . وكانت المصانع ودور التعليم وأندية العمال تتبارى جميعها في حمل اسمه والعناية بأدبه . وكانت فكرة نشوء فن جديد وثقافة مجتمع لا تتفاوت فيه الطبقات ولا تتباين الأقدار تستمد منه الوحي وتلتمس عنده العون والتأييد . وكان الكتاب الناشئون يفخرون بأنهم مدينون لتشجيعه ، وأنهم يحكيون على منواله ويذهبون في الأدب مذهبه .

وقد ناصر جوركي الثورة الروسية منذ بدايتها ، وكان من حملة أعلامها والمدافعين عنها ، وكانت له علاقات بأقطابها البارزين ، ولا سيما زعيمها الأكبر لينين . وقد عاونهم بقلمه وأيدهم برأيه ، وناضل عن الاشتراكية الشيوعية ، واتصدى لخصومها يسفه آراءهم ويفند حججهم . وكان نقد الثقافة البورجوازية وإبراز عيوبها من الموضوعات القريبة من نفسه ، الحبيبة إلى قلبه .

ولم يكن الرجل داعية من الدعاة كما قد يتبادر إلى الذهن ، وإنما كان صاحب عقيدة ، ورب فكرة ، وكان يعتقد اعتقاداً عميقاً مخلصاً أن الشيوعية هي طريق الخلاص ، وباب النجاة ، وأن لا سبيل إلى استنقاذ روسيا من الخرافات والأوهام ، وبعثها من الجمود والفتور المستولى عليها إلا بالشيوعية .

وقد نبغ جوركى من صميم الشعب الروسى ، ونشأ نشأة عجيبة قليلة  
الأمثال ، فقد كان أبوه إسكافا ، ومات وهو لم يبلغ الرابعة من عمره ،  
وكفله جده وأرسله إلى المدرسة مدة أشهر قلائل ، ولم يمكنه فقره من إبقائه  
فى المدرسة ، واضطر جوركى إلى العمل فى سن مبكرة ، فاشتغل فى  
حانوت صانع أحذية ، وفى الثانية عشرة من عمره فر من منزل جده وأخذ  
يضرب فى الأرضين ويتقلب فى شتى البلاد ، واشتغل مرة باحدى  
البواخر يغسل الأوانى والصحاف ، وكان طاهى الباخرة رجلاً ضخماً عملاقاً  
له مشاركة فى الأدب وميل إلى القراءة والاطلاع ، وكان يقول لجوركى  
إن القراءة هى الذ المتع وأبقى المسرات ، وقد أثرت كلمات هذا الطاهى الأديب  
فى نفس جوركى الغضة المتطاعة ، ثم عاد إلى جده ، ولكن سرعان ما اعتراه  
الملل ، ونبا به المقام ، فعاد يكدح فى طلب الرزق ، ويطوف فى البلاد ،  
وجاب إقليم الفلجا ، ووصل إلى ضفاف بحر الخزر ، وكان يعمل بهمة  
وعزيمة ، ولكنه كان يبيت أكثر لياليه خاوى الوفاض قد طواه الجوع  
وتلغبه السير .

وقد حاول وهو فى قازان — وكان فى الخامسة عشرة من عمره — أن  
يلتحق باحدى المدارس ، ولكنه وجد عملاً فى محل خباز ، ولم يلبث أن  
تركه واشتغل بستانياً ، ثم منشداً فى إحدى الكنائس ، وراقه بعد ذلك  
أن يعمل مع صائدى الأسماك فى أستراخان ، واشتغل مرة حارساً ليلياً  
بالسكة الحديدية .

وقد كان جوركى رجلاً كبير النفس واسع الأمل ، فلم يسخط الحظ ، ولم يشك البؤس ، ولم ين عن إيمان التحصيل واستيعاب التجارب ، واختزان المؤثرات ، وقد مكّنه ذلك من أن يلمس قلب الشعب ، ويفهم حاجات الطبقات الفقيرة ، ولف هواه بهواهم ، وعقد المودة الدائمة بينه وبينهم ، وقد كانت معاشته لهذه الأصناف المختلفة من الناس ، ودراسته لهذه الأنماط العديدة من الأخلاق من دواعى استثارة عبقريته ، ومن العوامل التى خلقت منه كاتباً فريداً الطابع فذ الشخصية .

وشرع يكتب بعض القصص القصيرة فصادفت إقبالا ورحبت به المجلات الأدبية ، وفى سنة ١٨٩٨ ظهرت له مجموعة من القصص فى مجلدين لقيت رواجاً . وفى مدى عام أو عامين أصبح ذلك الصعلوك الشارد الجوال الذى تقاذفته البلاد ، وانفخته مختلف المهن فى طليعة كتاب روسيا ، وترامت شهرته وعظم تأثيره حتى قرن اسمه باسم أديب روسيا العظيم طواسطوى والروائى الكبير تشيكوف .

وقد وصل جوركى إلى أوج شهرته عند تمثيل روايته « فى الأعماق » سنة ١٩٠٢ بمسرح موسكو . وقد انضم إلى معسكر الماركسيين واشترك فى تحرير مجلتهم ، وقد عطلت المجلة لأنها نشرت له قصيدة تنبأ فيها بالثورة القادمة ، وقبض عليه ونفى إلى نجنى ، وألغى انتخابه لأكاديمية العلوم ، فاستقال منها تشيكوف وكورلنكو احتجاجاً على ذلك ، وعمل جوركى مع الثائرين الناقلين وحضر مؤتمراتهم

وفي أيام اشتداد الثورة الروسية استطاع جوركي بجأه ومكانته عند زعماء الثورة أن ينقذ الكثيرين من الكتاب والمستنيرين من مخالب الموت وبرائث الفقر ، وحاول جهده أن يلفظ من ميول الثورة الحاطمة ويخفض من غلوها . وقد نفعته في ذلك السبيل صداقته المتينة لزعيم الثورة وكبير رجالها « لينين » . وليس غريباً أن تنشأ بين هذين الرجلين النادرين تلك الصداقة المتينة والتقدير المتبادل ، فقد كان لينين مفكراً ممتازاً وعالمًا واسع الاطلاع قبل أن يكون زعيماً سياسياً ، وثائراً هادماً ، وكان يعرف جوركي وإخلاصه وحسن بلائه . وكان جوركي يسمع عن لينين قبل أن يراه ويعجب بشخصيته ، وقد رآه أول مرة في لندن عند حضوره مؤتمر حزب العمال الروسي الديمقراطي الاشتراكي الذي عقد سنة ١٩٠٧ ، ولما التقيا صاحفه لينين وحياه تحية حارة وفرح به فرحة الأديب بالأديب ، وقال له في عرض الحديث : « أعتقد أنك من هواة النضال ، وستدور في المؤتمر معارك تروكك » وقد حضر هذا المؤتمر كثيرون من الزعماء والقادة ، بينهم بليكانوف وتومسكي ومارتوف وروزالو كسمبرج . وقد وصف لنا جوركي لينين عندما جاء دوره في الخطابة فقال : « أسرع فلادمير إلى منصة الخطابة وصاح بصوته المنبعث من الحلق « أيها الرفاق » ، وبدالى في بادىء الأمر أنه لا يحسن الخطابة ولا يجيد الإلقاء ، ولكن ما هى إلا لحظة حتى استغرقنى حديثه ، وغمرنى تياره ، ولأول مرة فى حياتى أسمع مشكلات السياسة الصعبة المعقدة تعرض بأسلوب يسهل حزنها ، ويجلو دياجيرها ،

ولم أشعر بأنه يبذل في ذلك جهداً أو يعاني مشقة ، وأنه يحاول أن يتخير الألفاظ المنمقة والتراكيب البليغة الطنانة ، وكانت كل كلمة من كلماته واضحة المخرج ، جلية المعنى ، ناصعة الدلالة ، ومن الصعب أن أنقل إلى القارىء ما تركه في نفسى من أثر... وخيل إلى أنه يزن كل لفظه ، ويتقدر وقعها ، وأنه يتقصى تقدمات خصومه ويتتبعها ، ويردها كللى جريئة بحجج دامغة تؤيد حق العمال فى أن يسلكوا طريقهم دون أن يسيروا خلف البورجوازية الحرة ويتعلقوا بذيولها . . . . وكانت وحدة حديثه واتساقه وقوته واتجاهه المباشر ووفائه بالعرض ومظهره على المنصة تكون فى مجموعها قطعة بديعة من الفن الكلاسيكى . وقد كانت خطبته أقل طولاً من خطب غيره من الخطباء الذين سبقوه ، ولكن تأثيره فى النفوس كان أعظم وأبقى ، ولم يكن هذا شعورى وحدى ، فقد سمعت صوتاً يهمس خلفى «لقد قال شيئاً» وكان لا يصل إلى النتائج التى ينتهى إليها بكلفة وتعمل ، وإنما كانت كأنها تنمو من تلقاء نفسها ، وتبدو كأنها شىء لا مناص منه ولا سبيل إلى غيره»

و يصف لنا جوركى عطف لينين الجرم على العمال وفرط عنايته بشؤونهم وبالغ اهتمامه بتفقد أحوالهم ، ويتقل جوركى عن أحد العمال أنه قال فى الموازنة بين لينين و بليكانوف زعيم المنشفيك : « بليكانوف يشعرك على الدوام بأنه يلقي عليك درساً ، ويشرف عليك من حلق ، ولكن لينين يشعرك بأنه الزعيم الحق والرفيق »

وقد لاحظ جوركى أن لينين كان يتخفف من الطعام ، وكان قليل

العناية بنفسه ، موجهها اهتمامه جميعه إلى العمال ، وقد سأل مرة جوركي أحد هؤلاء العمال : « ما هي أبرز صفات لينين ؟ » فأجاب العامل : « البساطة ، إنه بسيط مثل الحق نفسه »

وقبل الحرب الكبرى السابقة بأعوام قال لينين لجوركي في أحد أحاديثه : « الحرب قادمة وليس لنا عنها معدي ولا مذهب ، وقد وصل عالم الرأسمالية إلى درجة الاحتمار العفن ، ولقد تسممت عقول الناس بعقائير الوطنية والمغالاة في التعرة القومية ، وأكبر ظني أننا سنرى حرباً أوروبية عامة ، وسوف لا تجد الطبقات الفقيرة القدرة على اجتناب هذه المجزرة ، وكيف السبيل إلى ذلك ؟ هل يستطيع عمال أوروبا الإضراب ؟ إنهم لم ينظموا بعد التنظيم الكافي ، وينقصهم الوعي الطبقي ( أو الشعور بأنفسهم باعتبارهم طبقة متحدة ) وليس في وسعنا ساسة عمليين أن نعتمد على ذلك . . . . »

ثم التفت لينين إلى جوركي واسترسل قائلاً « فكر في هذا ملياً ، واعجب لقوم متخومين يدفعون بقوم جياع مهازيل إلى محاربة بعضهم البعض ، أرأيت جريمة أدل على العباء والحقاقة ، وأشد نكراً وفضاعة ؟ وسيدفع العمال ثمناً غالياً ، ولكنهم سيفوزون في النهاية . وهذه هي إرادة التاريخ »

وكان لينين رجلاً صبوراً مجرباً ، يعرف كيف يتلقى الضربات ويثبت للنوازل . قال مرة لجوركي « من الخير أن نلقى الفشل بالفكاهة والابتسام ،

والفكاهة صفة باهرة ، والحياة مضحكة بمقدار ما هي محزنة »

ولينين بلا ريب من أعظم شخصيات العصر الحديث ، وقد أحبه قوم حتى العبادة ، وكرهه قوم حتى ودوا لو أنهم يستطيعون رجمه بالأحجار ، وقد أثر في تاريخ العالم تأثيراً بعيد المدى ، وكانت عقليته عقلية غير عادية ، وقد كَوَّن آراءه السياسية في صدر حياته ، ولما تبلورت تلك الآراء لم يتحول عنها ، وكان يغير الأسلوب ولكن الهدف الذي كان يرمى إليه ظل واحداً ، وكان عقله في صميمه عقل متعصب يعتقد أنه قد عرف الحق واهتدى إلى سبيله ، وكان كتاب « رأس المال » الذي وضعه كارل ماركس إنجيله ومصحفه ، وكان مع ثقته بنفسه واعتداده بآرائه لا يشمخ ولا يتكبر ، قال جوركي في ذكرياته عنه : « لا أستطيع أن أتصور رجلاً غيره قد بز الناس وسبقهم وأناف عليهم ، وبقي بعد ذلك مطرَحاً لأهوائه بريثاً من الطموح ، لا يعنى بغير مصلحة الشعب ، ولا يفكر في غير نفعه والنهوض به . ولقد كان في شخصيته سحر يجذب نحوه قلوب العمال ويسيطر على عواطفهم ، وكانت له ضحكة خلابة صادرة من أعماق القلب ، ضحكة رجل قد عرف سخافة البشر السمجة البغيضة ، وذبذبة الأذكىاء وتقلبهم وبهلوانيتهم ، وأصبح يجد متعة وروحاً في بساطة السليمى القلب الخالصى الطوية »

ويقول جوركي في تبرير الشدة التي لجأ إليها لينين لحماية النظام الذي وضع أساسه : « إن واجب قادة الشعب المخلصين لما يخرج عن طوق البشر

في الصعوبة ، والزعيم الذي لا يكون طاغية إلى حد ما من المحال وجوده .  
وقد قتل كثيرون في عهد لينين ، ولكن لولا هذا القمع لأصبحت المقاومة  
التي لقيها النظام الجديد أوسع نطاقاً وأقوى عزماً وأشد خطراً ، وعلاوة  
على ذلك فإن علينا أن نقيم وزناً لهذه الحقيقة ، وهي أن تقدم الحضارة قد  
قلل من قيمة الحياة الإنسانية ، ومما يثبت هذه الحقيقة في الحياة الأوربية  
المعاصرة تقدم فن إبادة الناس واستساغة هذا العمل «

وفي موضع آخر من ذكرياته عن لينين يقول : « لقد طالما أفاض  
القائلون وأسهب الكاتبون في رمي لينين بالقسوة والفظاعة ، وليس من  
أر بي أن أقف ذلك الموقف المضحك الخالي من التبصر ، وهو أن أحاول  
تفنيد الأقاويل الكاذبة ، أو أن أورد على الشتائم والنائم ، فإنني أعلم أن  
الكذب والتنقص وتشويه السمعة من الأساليب المتبعة في السياسات  
البورجوازية الحقيرة ، ومن المتعذر أن نجد رجلاً عظيماً في العصر الحاضر  
لم يقذف بالأوحال ، وهذا من الأمور المعروفة المألوفة ، وفضلاً عن ذلك  
فإن هناك ميلاً في نفوس الناس إلى إنزال العطاء من مستواهم الرفيع وغمط  
حقوقهم . . . . . ولقد كان فلاديمير لينين يعرف أكثر من أي إنسان كيف  
يمنع الناس من البقاء على أسلوب الحياة الذي تعودوه وألفوه ، وكراهة  
عالم البورجوازية له كراهة عارياً مكشوفة »

وحادثه جوركي مرة عن قسوة الأساليب الثورية فقال له لينين غاضباً:  
« ماذا تريد بذلك ؟ هل من الميسور أن نتصرف تصرفاً إنسانياً رحماً

في معركة منقطعة النظير في هولها وضراوتها؟ وأين يكون مكان رقة القلب  
وكرم الأخلاق في مثل هذه المعركة؟ لقد حاصرنا أوروبا من جميع النواحي،  
وحرماننا من معاونة العاطفين علينا في أوروبا، وكانت الحركة المناوئة للثورة  
تطالعتنا من شتى الجهات، فماذا تريد؟ ألسنا على حق؟ ألم يكن من واجبنا  
أن نجاهد ونقاوم؟ وما هو المعيار الذي نرجع إليه في تقدير الضربات  
اللازمة والضربات غير اللازمة في الحرب والصراع؟»

ويحدثنا جوركي في ذكرياته عن مضاء عزيمة لينين وقوة إرادته  
وقسوته على نفسه، ففي أيام المجاعة كان يعف عن تناول الطعام الذي يرسله  
إليه الجنود والمزارعون. وكان يوزع ما يرسل إليه من الدقيق والسكر  
والزبد على المرضى والضعفاء من الرفقاء.

ولما لاحظ اعتلال صحة جوركي نصح له بالسفر إلى خارج روسيا، وألح  
عليه في ذلك، ولم تنسه الواجبات الضخمة الملقاة على عاتقه السؤال عن  
صديقه القديم وزميله في الجهاد، والعناية بأخباره.

وقد ختم جوركي ذكرياته القيمة النفيسة عن لينين بهذه الكلمات التي  
أختم بها هذا الفصل: «لقد مات فلاديمير لينين. ولكن وريثة فكره  
وإرادته لا يزالون أحياء. وهم يتمون عمله، ويكملون ما بدأه، وعمله أكثر  
الأعمال انتصاراً في تاريخ البشرية»

هذا ما قاله جوركي. ولكن هذا العمل يجتاز الآن محنة قاسية ويمر  
بتجربة شديدة. أتراه يتغلب عليها ويسمو فوقها؟ هذا ما ستكفل  
بالإجابة عنه الأشهر أو الأعوام القلائل القادمة